حرام علي النوم

كان مالك بن قراد قد هرب بابنته عبلة من وجه عنترة، ونزل بها على بني شيبان وأقام عند سيدهم قيس بن مسعود، فقلق عنترة لفقد عبلة قلقاً عظيماً، وقال يذكر شدة شوقه إليها وما يلاقي من فراقها:

[الطويل]

إذا كـان دمـعـي شـاهـدي كـيْـفَ أجْـحـدُ
وَنـارُ اشـتـيـاقـي فـي الـحَـشـا تَـتَـوَقَّـدُ[١]؟
وَهَـيْـهـاتَ يَـخْـفـى مـا أُكِـنُّ مـن الـهـوَى
وَثَـوْبُ سَـقـامـي كُـلَّ يَـوْمٍ يُـجَـدَّدُ[٢]
أُقـاتِـلُ أشْـوَاقـي بـصَـبْـرِي تَـجَـلّـداً
وَقَـلْـبـيَ فـي قَـيْـدِ الـغَـرَامِ مُـقَـيَّـدُ[٣]
إلـى الـلَّـهِ أشـكـو جَـوْرَ قَـوْمـي وَظُـلْـمَـهـم
إذا لـم أجـدْ خِـلّاً عـلـى الـبُـعْـدِ يَـعـضُـدُ[٤]

(١) دموع تكشف حال الشاعر، لذا فهو لا يستطيع الإنكار، ففي قلبه نار الحب لاهبة حارقة لا تريم تتوقّد.

(٢) هيهات: اسم فعل ماضٍ بمعنى بعُد. ليس باستطاعة الشاعر المواربة والاختباء خلف أعذار واهية؛ فالحبّ ليس من السهل إخفاء دلائله، ذلك أن من دلائله مرضاً يتجدّد مع الأيام.

(٣) إنها معركة خاسرة؛ فمقاتلة أشواقه لا ينفع معها الصبر، ذلك أن قلبه مقيّد بسلاسل رغم رقتها فهي متينة، لا يمكن التحرّك والخلاص من براثنها.

(٤) بلا أدنى ريب أن هذا البيت يكشف أن القصيدة منحولة لعنترة. فالشكوى إلى اللَّه تعالى لم تدخل في قاموس الشعر الجاهلي. الجَوْر: الظلم. =

خَـلـيـلـيَّ! أمْـسـى حـبُّ عَـبْـلَـةَ قـاتِـلـي
وَبـأسـي شَـدِيـدٌ وَالـحُـسَـامُ مُـهَـنَّـدُ[١]
حَـرَامٌ عـلـيّ الـنَّـوْمُ يـا ابْـنَـةَ مَـالِـكٍ،
وَمـن فـرْشـهُ جـمـرُ الـغـضَـا كـيْـفَ يـرْقُـدُ[٢]؟
سـأنْـدُبُ حَـتـى يَـعْـلَـمَ الـطّـيْـرُ أنّـنـي
حَـزِيـنٌ وَيَـرْثـي لـي الـحَـمـامُ الـمُـغَـرِّدُ[٣]
وَأَلْـثِـمُ أرْضـاً أنْـتِ فـيـهـا مُـقـيـمَـةٌ
لَـعَـلّ لَـهـيـبـي مـن ثَـرَى الأرْضِ يـبـرُدُ[٤]
رَحَـلْـتِ وَقَـلْـبـي يـا ابْـنَـةَ الـعَـمّ تـائِـهٌ
عـلـى أثَـرِ الأظْـعـانِ لـلـرَّكْـبِ يَـنْـشُـدُ[٥]

= الخلّ: الصاحب. يشكو الشاعر ما أصابه من قومه، وما لحقه من ظلم؛ ذلك أنه لم يجد الصاحب، في الضيق، يعمل على دفع الظلم عنه.

(١) يعرض الشاعر سوء حاله؛ فحب عبلة ملك عليه جوارحه، وهو قاتل، ولكن ما يدفع عنه ذلك أن شدّة قوّته عظيمة إذا أعمل سيفه في أعدائه.

(٢) الغضا: ضرب من شجر تمتاز ناره بشدتها. يرى الشاعر أن النوم من المحرمات، فهو أرق لا تعرف عيناه طعم النوم، ذلك أن فراشه جمر شديد الاحتراق، ولا سبيل إلى النوم.

(٣) ليس من طبيعة عنترة القوي أن يذكر الندب. عزم الشاعر على النحيب والبكاء، ولن يسلو حتى يقف الطير المغرّد على سوء حاله وشدّة حزنه، فيرثي له ويتألم لألمه.

(٤) سيُقبّل تراب الأرض، حيث تسكن رجاء أن تستكين نار أشواقه وتنطفئ، فيبرد ما فيه من لهيب شوقه إلى عبلة.

(٥) يستحضر الشاعر ابنة عمّه ويخاطبها مُبيّناً ما عليه من سوء الحال؛ فالقلب تائه يهيم بحثاً عن الركب الذين رحلوا وحملوا معهم أمله وحبّه في هذا الوجود.

لـئـنْ يَـشْـمَـتِ الأعـداءُ يـا بـنـتَ مـالـكٍ
فـإنّ وِدادي مِـثْـلَـمـا كـانَ يُـعْـهَـدُ[١]

(١) فلو أن الأعداء يشمتون ويفرحون بهجر الأحبّة إلى حيث يبغين، بينما حبّ الشاعر لا يزال، رغم تقلّب الظروف فسيبقى كما عُهد وعرف، فهو في السرّ والعلن سواء.